محددات الموقف الروسى من "عاصفة الحزم"

(١ /٤/ ٢٠١٥)

د. نـورهان الشيـخ*

منذ بدأ "عاصفة الحزم" فجر الخميس ٢٦ مارس، أبدت روسيا قلقاً واضحاً إزاء ما يجرى وتداعياته المستقبلية على استقرار المنطقة. وأكد الرئيس الروسي فلاديمير بوتين أهمية الوقف الفوري للقتال في اليمن، وضرورة تفعيل الجهود، بما في ذلك جهود الأمم المتحدة، لبلورة حلول سلمية للنزاع اليمنى، وإطلاق حوار واسع بمشاركة جميع القوى السياسية والدينية في البلاد. وعبر المتحدث باسم الرئاسة الروسية ديميتري بيسكوف عن شدة قلق موسكو من تطورات الأوضاع في اليمن.

تزامن هذا مع تأكيد الخارجية الروسية على دعم موسكو لسيادة اليمن ووحدة أراضيه، داعية الأطراف اليمنية وحلفاءها إلى وقف الأعمال القتالية. وجاء في بيان لوزراة الخارجية الروسية أن "موسكو تعبر عن قلقها البالغ من الأحداث الأخيرة في الجمهورية اليمنية الصديقة وتؤكد دعمها الثابت لسيادتها ووحدة أراضيها".

وأكد وزير الخارجية الروسى سيرجى لافروف على أن "السبيل الوحيد لحل الأزمة اليمنية هو المفاوضات، وشدد على أن اللعب على التناقضات بين الشيعة والسنة أمر بالغ الخطورة". وأن موسكو ستصر على استئناف المفاوضات اليمنية بوساطة المبعوث الدولى الخاص، معرباً عن أمله أن تحذو سائر الدول المعنية بالأزمة فى اليمن حذو روسيا. وعكست لقاءات ميخائيل بوجدانوف مبعوث الرئيس الروسي الى الشرق الأوسط وإفريقيا ونائب وزير الخارجية، مع عدد من المسئولين العرب على هامش القمة العربية في شرم الشيخ الأحد ٢٩ مارس، هذا القلق الروسى والحرص على عدم التصعيد العسكرى فى المنطقة. ويمكن فهم الموقف الروسى من "عاصفة الحزم" فى ضوء جملة من العوامل، لعل أبرزها:

١. حرص روسيا على استقرار المنطقة كتوجه عام حاكم لسياستها فى الشرق الأوسط:

يقع الشرق الأوسط بالقرب من التخوم الروسية ويعتبر منطقة جوار شبه مباشر لروسيا، وللأخيرة مصالح هامة وحيوية فى المنطقة، وتنطلق السياسة الروسية من ضرورة الحفاظ على استقرار المنطقة كمتطلب أساسى لضمان المصالح الروسية. وهى بذلك ضد التغيرات الثورية

---

* أستاذ العلوم السياسية – جامعة القاهرة.

والحروب الأهلية وأى أعمال أخرى تهدد الاستقرار الإقليمى. فروسيا أميل إلى تحقيق أهدافها ومصالحها من خلال علاقات تعاونية مع دول المنطقة على النحو الذى يخدم مصالحها ومصالح الأطراف العربية، وهو أمر يبدو مستحيلاً فى مناخ عدم الاستقرار وغياب سلطة شرعية تحكم قبضتها على مقاليد الأمور وتفى بتعهداتها الدولية تجاه روسيا وغيرها من الدول.

٢. التخوف من اختلال التوازن فى علاقات روسيا بالقوى الإقليمية المختلفة:

استطاعت روسيا على مدى العقدين الماضيين تطوير علاقاتها مع كل من إيران ودول فى آن واحد، وأن تبقى على التوازن فى علاقاتها الاستراتيجية مع طهران بالتوازى مع تنمية التعاون مع دول الخليج خاصة المملكة العربية السعودية والامارات العربية المتحدة. وفى الوقت الذى شهدت فيه العلاقات الروسية الإيرانية تطوراً ملحوظاً ونمواً مضطرداً، ونجحت زيارة الرئيس الروسى فلاديمير بوتين إلى طهران عام ٢٠٠٧، والتى كانت الأولى منذ ٦٤ عاما والثانية لزعيم روسي بعد جوزيف ستالين، فى الانتقال بالعلاقات الروسية الإيرانية إلى مستوى الشراكة الاستراتيجية فى مختلف المجالات. تطورت العلاقات الروسية الخليجية على نحو ملحوظ وحققت قفزات واضحة خاصة فى أعقاب زيارات بوتين لعدد من دول الخليج عام ٢٠٠٧، واستطاعت موسكو إعادة إطلاق علاقاتها مع دول الخليج وإحداث تطور غير مسبوق فى العلاقة معها وخاصة المملكة العربية السعودية بعد عقود طويلة من توقف العلاقات بين موسكو والرياض منذ ثلاثينات القرن الماضى.

إلا إن الأزمة السورية ألقت بظلال وتداعيات سلبية واضحة على العلاقات الروسية الخليجية فى ضوء تناقض المصالح وتباعد المواقف من الأزمة بين الجانبين، وأدت إلى فتور مازال يخيم على العلاقات بين الطرفين، فى حين أحدثت الأزمة نقلة نوعية فى العلاقات الروسية الإيرانية تعمقت فى ضوء توقيع البلدين اتفاقاً للتعاون العسكري التقني فى ٢٠ يناير من العام الجارى خلال زيارة وزير الدفاع الروسى لإيران والتى تعد الأولى منذ ١٥ عاما حيث كانت الأخيرة على هذا المستوى عام ٢٠٠٠.

إن روسيا حريصة على علاقاتها بدول الخليج العربية بقدر حرصها على العلاقة مع إيران. وقد أعلن وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف فى فبراير ٢٠١٤ عن استعداد موسكو للإسهام في تطبيع العلاقات بين إيران ودول الخليج، وأشار إلى أن ضعف الثقة المتبادلة بين الجانبين يسيء لمصالح دول المنطقة، واقترح إطلاق عملية من شأنها أن تسمح ببدء حوار بين

الطرفين، وعقد اجتماع دولي حول ضمان الأمن في منطقة الخليج. وأنه من الأهمية بمكان تطوير نظام للأمن الجماعي كصيغة مثلى لضمان أمن الخليج العربي من وجهة النظر الروسية، وذلك على غرار تجارب أخري مثل مجموعة شنجهاى. وتختلف الرؤية الروسية فى هذا الخصوص تماماً عن رؤية دول كبري أخري والتى ترى فى العلاقات والتفاهمات الثنائية بينها وبين دول الخليج العامل الأهم فى تحقيق الاستقرار من عدمه فى المنطقة.

وتتخوف روسيا من أن تؤدى الأزمة اليمنية إلى مزيد من التباعد بين الطرفين حيث تضع عملية "عاصفة الحزم" دول الخليج فى مواجهة مباشرة مع إيران التى تدعم الحوثيين. ومن ثم تتحفظ روسيا ولا تعلن دعماً صريحاً لأياً من الطرفين، الأمر الذى يمكنها من الانفتاح على مختلف الأطراف، ويرفع عنها الحرج ويحفظ لها التحالف مع إيران، دون مزيد من الإضرار بعلاقاتها مع دول الخليج.

٣. التخوف من اتساع نطاق العمليات العسكرية وتحولها إلى حرب إقليمية:

تبدى روسيا قلقاً شديداً من اتساع نطاق المعارك وإمتدادها إلى دول أخرى، وتتخوف من أن يدفع نجاح دول الخليج فى تحقيق أهدافهم فى اليمن إلى تكرار العملية فى دول أخرى خاصة سوريا. وفى هذه الحالة لن تستطيع روسيا الاستمرار فى سياسة الحياد والتحفظ، لانه لا يمكنها التضحية بشريك أساسى مثل سوريا، وقد تجد نفسها فى مواجهة غير مباشرة مع دول الخليج الأمر الذى سيضر حتماً بمصالحها الهامة فى المنطقة.

كما تبدى روسيا قلقاً من إمكانية تورط قوى إقليمية، فى مقدمتها إيران التى تدعم الحوثيين، فى الصراع وتحوله إلى حرب إقليمية واسعة النطاق على مقربة منها. يزيد من هذه المخاوف لدى روسيا مشاركة باكستان فى العمليات والتى يغلب على علاقاتها بإيران التوتر والتنافس الإقليمى.

٤. التخوف من أن تؤدى العملية إلى زيادة نفوذ المتشددين والقاعدة باليمن:

تتخوف روسيا كثيراً من أن تؤدى "عاصفة الحزم" إلى إثارة التطرف فى اليمن وزيادة نفوذ المتشددين الإسلاميين، وتنظيم القاعدة فى المنطقة التى يشهد نشاطها بالفعل نمواً واضحاً وتعتبر فاعل رئيسى فيما تشهده اليمن من صراعات على مدى السنوات الخمس الماضية منذ اندلاع الثورة بها. وقد برز تنظيم القاعدة في اليمن بصورة أولية مطلع التسعينات عقب عودة من عرفوا

باسم "الأفغان العرب"، ومنهم كثير من اليمنيين، وقد استهدفت أول عملية للتنظيم عام ١٩٩٢ عناصر من قوات البحرية الأمريكية "المارينز"، ومنذ ذلك التاريخ نفذ التنظيم عشرات العمليات الارهابية. وفي مطلع عام ٢٠٠٩ أعلن تنظيم القاعدة، بجناحيه اليمني والسعودي، عن عملية دمج في إطار تنظيم واحد، أطلق عليه "تنظيم القاعدة في جزيرة العرب". ولاشك أن مناخ عدم الاستقرار والانشغال بالصراع على السلطة سوف يتيح للتنظيم مزيد من التمدد في البؤر غير المستقرة فى اليمن، خاصة وأن التنظيم سيحاول كسب تعاطف اليمنيين فى مواجهة الضربات العربية.

ومن المعروف أن روسيا، على عكس الولايات المتحدة، ليست على علاقة طيبة بتيارات الاسلام السياسى بصفة عامة والجماعات الارهابية والمتطرفة، وترفض مجرد الحوار مع الأخيرة وترى فيها تهديداً مباشراً للأمن القومى الروسى، وتسعى جاهدة لمكافحة الارهاب والقضاء على التطرف داخل روسيا وفى دول جوارها، وتخوفت كثيراً من صعود تيار الاسلام السياسى وأبدت إنزعاجاً وقلقاً واضحاً إزاء وصوله إلى السلطة فى بعض دول المنطقة، خاصة وإنها تدرج جماعة الأخوان المسلمين وعدد من الجماعات الاسلامية المتشددة ضمن قائمة المنظمات الارهابية لديها منذ عام ٢٠٠٣. ورأت أن هذا سيؤدى إلى توسيع نشاط القاعدة والجماعات الارهابية والمتطرفة، وسيكون لهذا أصداء فى الداخل الروسى الذى لا يزال يعانى من الارهاب فى أعقاب الموجات العنيفة من عدم الاستقرار فى منطقة القوقاز الروسى طوال التسعينات. ورغم استخدام موسكو القوة بصرامة للقضاء على الارهابيين فى تلك المنطقة، ومكافحة الارهاب فى أراضيها الجنوبية فى القوقاز بشتى الوسائل الأمنية والتنموية، مازال الارهاب جرح يدمى القوقاز وروسيا.

٥. شكوك روسيا فى أن تكون "عاصفة الحزم" عملية أمريكية بأيدى عربية:

ترى روسيا أن المستفيد الأول من عدم الاستقرار فى المنطقة هو الولايات المتحدة، التى تحاول تصفية القدرات العربية بضرب ببعضها ببعض والتلاعب باستقرار هذه الدول والتوازنات العرقية والدينية والمذهبية داخلها لخدمة مصالحها على حساب أمن دولها والأمن والاستقرار الإقليمى. ورأت موسكو أن واشنطن تسعى إلى إحكام قبضتها على المنطقة ووضع حد للشراكة العربية المتنامية مع القوى الآسيوية وفى مقدمتها روسيا، وذلك من خلال إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط جغرافياً وسياسياً، وإضعاف القوى الإقليمية الهامة العربية وغير العربية الكبرى، وخلق كيانات ضعيفة يسهل توجيهها ولا تمثل خطر على مصالحها. يعزز من المخاوف الروسية خبرة التدخل الأمريكى فى ليبيا ومن قبلها العراق، ودعمها

للثورات العربية، والسياسة الأمريكية غير الفعالة تجاه "داعش" وغيرها من المنظمات الارهابية التى تهدد الاستقرار الإقليمى والدولى.

من ناحية أخرى، قد تمثل عملية "عاصفة الحزم" ضغطاً على إيران وإضعاف لموقفها فى المفاوضات الجارية بينها وبين الولايات المتحدة. وترى روسيا أن الدعم الأمريكى للعملية هو لتحقيق مصالح أمريكية خالصة، ويفتح الباب أمام تصفية الحسابات القديمة بين الولايات المتحدة وإيران وكسر شوكة طهران.

صحيح أن مثل هذه التخوفات لم تأت صراحة على لسان المسئولين الروس، إلا إن بعض الصحف الروسية عكستها على نحو واضح حيث هاجمت وكالة أنباء "سبوتينيك" الروسية السياسات الأمريكية وموافقتها على التحرك العربى فى اليمن، وقالت الوكالة الروسية إن "الولايات المتحدة تنظر إلى نفسها وحلفائها على أنهم لا يخضعون لقوانين التصرف الطبيعية التى تنطبق على غيرهم"، معتبرة أن التحركات الأمريكية "مزدوجة المعايير".

وهاجمت صحيفة "برافدا" الروسية، التدخل العربى فى اليمن، ورأت إن التحرك العربى ما هو إلا محاولة لـ"غزو اليمن" بمساعدة الولايات المتحدة للدفاع عن "نفطهم". وأشارت الصحيفة إلى أن "الغزو العربى لليمن ما هو إلا محاولة لإنقاذ النفط الذى يمر من خلال باب المندب، حيث إن السعودية قلقة من سيطرة الحوثيين على المضيق الذى يتمتع بأهمية استراتيجية". واتهمت الصحيفة الروسية المملكة العربية السعودية بـ"استغلال المخاوف من الحوثيين لإقناع الولايات المتحدة". ودافعت "برافدا" عن المحادثات مع إيران، ورأت إن "الولايات المتحدة تخاطر بالمفاوضات للتوصل إلى اتفاق نووى مع إيران، من خلال دعم العملية العربية ضد اليمن".

إن الموقف الروسى من "عاصفة الحزم" ينبع من القلق الروسى الشديد إزاء التداعيات المحتملة للعملية وإمكانية خروجها عن نطاق السيطرة، وأن تكون النجاحات الأولى للضربات العربية مجرد تقدم مؤقت يعقبه صراع إقليمى ممتد تتورط فيه أطراف أخرى على نحو غير مباشر، أو مباشرة ليتحول الصراع إلى حرب إقليمية تقضى على الأخضر واليابس، وتطيح بالمصالح الروسية وتضع روسيا فى خيارات صعبة.